النـزعة الإنـسانـيـة في الخطاب الشعري
عنـد بـشارة الخوري

د. عبدالله بن خميس بن سوقان العُمري

ملخـــص:

الأدب فن إنساني بطبعه، يصور أحاسيس وأفكار مبدعه الذي هو جزء من مجتمعه وأمته، والنزعة الإنسانية إحدى مذاهب عصر النهضة، التي أكدت جدارة الإنسان الجوهرية وكرامته ومقدراته ، فهي موقف ذهني يولي اهتمامه المركز للمناشط الإنسانية،وقد برزت في شعر شعراء المهجر تأثراً بالرومانتيكيين الغربيين، وامتد هذا الأثر إلى بعض الشعراء الذين كان لهم اطلاع على الثقافات الغربية، وعاينوا الظروف القاسية التي عاشتها مجتمعاتهم فانحازوا للإنسان ككائن له كرامته ومتطلباته وحقه في العيش الكريم، ومن هؤلاء الشاعر اللبناني بشارة الخوري، إذ كان ملماً بالثقافة الفرنسية، إضافة إلى ثقافته العربية الواسعة ، وقد تجلت النزعة الإنسانية عنده في أكثر من غرض شعري كالحب ، والرثاء ، وتناوله للفقر كظاهرة كانت لها أسبابها السياسية والاجتماعية ، وجاءت تلك النزعة في لغة شعرية غاصت في أعماق المجتمع،مصوّرة يومياته ومعاناته في ظل وجود المحتل ، وما نتج عن ذلك من ظلم وتهجير وفقر، صوّرها من خلال السردية القصصية التي حرصت على إبراز هموم وآلام المجتمع.

***كلمات مفتاحية** : النزعة الإنسانية ، وظيفة الشعر ، الاغتراب، الاتكاء على التراث ، الأسلوب ، السرد القصصي.*

Abstract:

Literature humane art of nature, feelings and ideas creator, which is a part of his community and his nation, and humanism depicts one of the doctrines of the Renaissance, which confirmed the merits of fundamental human dignity and destiny, it is the position of my mind paying focused attention to humanitarian Mnact, has emerged in the poetry of poets Diaspora influenced by Western Baromantakyin, and extended this effect to some of the poets who had them see a Western cultures, and examined the harsh conditions experienced by their communities Vanhazoa of the human beings of dignity and requirements and the right to a decent living, and those Lebanese poet Bechara El Khoury, as he was familiar with French culture, in addition to Arab culture wide, humanism has demonstrated he has on more than one purpose of my hair like love, and self-pity, and his handling of the poverty phenomenon had its political and social causes, came the trend in the poetic language of sank into the depths of society, pictorial diary and suffering under occupation and presence, and what resulted from the oppression and displacement, poverty , portrayed through anecdotal narrative, which is keen to highlight the concerns and pains society

مدخـــل:

الأدب فن إنساني بطبعه، يصور أحاسيس وأفكار مبدعه الذي هو جزء من مجتمعه وأمته، يعيش أحداثها، وآلامها، وتطلعاتها، ويتغنى بأمجادها، وانتصاراتها، وبما أن وظيفة الكلام الأساسية هي الفهم، والإفهام، والإفصاح، والإبانة، وأن هذه الأهداف هي الغاية التي تهفو الكلمة إلى بلوغها[١]، فإن هذه الوظيفة المنوطة بالكلمة الإبداعية تصبح ذات رسالة مؤثرة تجاه عوارض الحياة، وتحولات الزمن، سواء بالترغيب فيها أو التنفير منها، ولما واجهه العالم العربي في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، والذي نشبت فيه الحرب العالمية الأولى ١٩١٤[٢]، وما تبع ذلك من حروب وأزمات، وحركة احتلال جثمت على ثرى بعض بلدانه من قِبل القوى العظمى، وما صاحب ذلك من تهجير، وسيطرة على خيرات البلدان، لتلك الظروف القاسية وتأثيرها على الحياة الاجتماعية وقف

(١) انظر الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، «البيان والتبيين» تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي – القاهرة، (ج١)، (ط٧) ١٩٩٨م، ص١٤٥.

(٢) الديراوي، عمر، «الحرب العالمية الأولى»، دار العلم للملايين، بيروت (ط١٨)، ص١٣.

الشعراء منافحين عن أوطانهم، ومدافعين عن قضاياهم، مشهرين سلاح الكلمة، ومصوّرين ويلات الحرب، وما خلفته من دمار ومآسٍ، حيث برزت رسالة الشعر في استنهاض العزائم وشحذ الهمم في سبيل الحرية والكرامة وكان لذلك أثره البارز في مناهضة الاحتلال، فقد أدت الكلمة الشعرية رسالتها، وكان وقعها في النفوس «أنفذ من نفث السحر»(٣)، إلا أن الظروف السياسية والاجتماعية القاسية اضطرت بعض الشعراء للهجرة من بلدانهم للبحث عن مجتمع آمن مستقر يستعيدون فيه شيئاً من حرياتهم، وخاصة إلى الأمريكيتين الشمالية والجنوبية، وكان للمثاقفة الإبداعية أثرها الواضح في شعرهم، حيث تأثروا بالمناهج الأدبية الغربية، وخاصة المنهج الرومانتيكي(٤)، الذي «ينحاز للنفس البشرية في تحقيق غاياتها الوجدانية والشعورية السامية تجاه الذات والمجتمع»(٥)، وقد برزت النزعة الإنسانية في شعر شعراء المهجر تأثراً بالرومانتيكيين الغربيين، وامتد هذا الأثر إلى بعض الشعراء الذين كان لهم اطلاع على الثقافات الغربية، وعاينوا الظروف القاسية التي عاشتها مجتمعاتهم فانحازوا للإنسان ككائن له كرامته ومتطلباته وحقه في العيش الكريم، ومن هؤلاء الشاعر اللبناني بشارة الخوري الملقب بـ«الأخطل الصغير» أو «أمير الشعراء» وقد كان ملماً بالثقافة الفرنسية، إضافة إلى ثقافته العربية الواسعة.

وقبل تناول النزعة الإنسانية في شعر بشارة لابد من الإشارة إلى ما يعنيه هذا الاتجاه الأدبي الذي كانت له ظروفه ليبرز في الأدب العربي، فالنزعة الإنسانية تعني: أي نسق «من الفكر أو الفعل يعتبر أن المصالح والقيم والكرامة الإنسانية هي العامل المهيمن، وتستتبع النزعة الإنسانية الولاء للشواغل الإنسانية، فهي موقف ذهني يولي اهتمامه المركز للمناشط الإنسانية... ومن الناحية التاريخية كانت النزعة الإنسانية إحدى مذاهب عصر النهضة، وقد ولدت في إيطاليا في القرن الرابع عشر، وأكدت جدارة الإنسان الجوهرية وكرامته ومقدراته»(٦).

وهو ما ذهب إليه تودروف حين يؤكد أن «الأدب يستطيع الكثير، يستطيع أن يمد لنا اليد حين نكون في أعماق الاكتئاب ويقودنا نحو الكائنات البشرية الأخرى من حولنا، ويجعلنا أفضل فهماً للعالم»(٧).

وقد كان ظهور النزعة الإنسانية في شعر

(٣) ابن طباطبا، «عيار الشعر»، تحقيق عبد العزيز بن ناصر المانع، الرياض ١٩٨٥م، ص٢٣.

(٤) انظر: القاعود، حلمي محمد، «النقد الأدبي الحديث بداياته وتطوراته»، دار النشر الدولي للنشر والتوزيع (ط١)، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م، ص٩١-٩٢.

(٥) السابق، ص٩٣.

(٦) إبراهيم فتحي، «معجم المصطلحات الأدبية»، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، ١٩٨٦، ص٣٦٩.

(٧) تودروف، تزفيطان، «الأدب في خطر»، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، (ط١)، ٢٠٠٧م، ص٤٥.

الخوري لعدد من العوامل التي عاشها الشاعر وأثرت في شخصيته ليتجه هذا الاتجاه، ومن أهمها:

أولاً: نشوب الحرب العالمية الأولى في فترة كان العالم العربي فيها مفكك الأوصال لضعف الدولة العثمانية التي صاحبها ركود كبير في الحركة الثقافية والأدبية، وكذلك نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م[٨].

ثانياً: ما بين الحربين هزت العالم العربي الكثير من الأحداث الجسام كان من أبرزها ضياع فلسطين، وما أعقب ذلك من أحداث سياسية وحربية كان أبرزها النكبة العربية عام ١٩٦٧، التي كان صداها قوياً في نفوس أبناء الأمة، وخاصة الشعراء، إذ تجرعوا مرارتها، وأصيبوا بخيبة أمل غير محدودة في قدرات أمتهم[٩]، تلت ذلك حرب تحرير سيناء ١٩٧٣م، والتي تمكنت فيها القوات العربية المصرية من فتح قناة السويس للملاحة الدولية بعد أن كانت مغلقة منذ عام ١٩٦٧[١٠].

ثالثاً: إصداره جريدة البرق التي دخل بها معترك السياسة وجعل منها «منبراً للحرية، وصوتاً للدفاع عن قضايا الشعب وأمانيه»[١١]، ثم إغلاقها من قبل الأتراك العثمانيين الذين دخلوا الحرب العالمية إلى جانب ألمانيا عام ١٩١٥م، وفُرضت الرقابة الصارمة على الصحف والمطبوعات التي رفضت ممالأة الحكم العثماني، بالإضافة إلى مطاردته من قِبل الحاكم العثماني (رضا باشا) والتي اختفى على إثرها وتنقل بين عدد من المدن اللبنانية خشية أن يُبطش به[١٢]، وهذا ما جعله غريب الأطوار في حياته، فقد عُرف عنه سرعة الغضب لكنه سرعان ما يهدأ، وكان صاحب نكتة حاضرة، وبديهة قوية، فضلاً عن كونه شاعراً عاش حياة الطبقة المعدمة في المجتمع، وكان لها صدى واضح في شعره[١٣].

لقد كان لتلك العوامل مجتمعة أثرها في بروز النزعة الإنسانية بكل ما تمثله من حب بشارة لوطنه ومجتمعه، ورفضه لصور الاستبداد والظلم التي مورست ضد أبناء الشام، ولبنان خاصة، وما صاحب ذلك من البؤس والفقر، والهجرة نتيجة الاضطرابات السياسية وسيطرة جيوش الاحتلال على الأرض العربية في بلاد الشام.

---

(٨) رمضان لاوند، «الحرب العالمية الثانية»، دار العلم للملايين، (ط١٩)، ٢٠٠٢م، ص٢٠.

(٩) انظر: حوّر، د. محمد إبراهيم، «فلسطين في الشعر المعاصر بمنطقة الخليج العربي»، دار القلم للنشر والتوزيع، الإمارات العربية، دبي (ط٢)، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص١٢٧.

(١٠) حجازي، محمد عبد الواحد، «العسكرية المصرية من طرد الهكسوس إلى طرد اليهود»، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ـــ الإسكندرية، ص٣٧٧.

(١١) قميحة، د. مفيد محمد، «الأخطل الصغير حياته وشعره»، منشورات دار الآفاق الجديدة ـــ بيروت، (ط١)، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م، ص١٥٤.

(١٢) الأخطل الصغير حياته وشعره، ص١٥٥- ١٥٨.

(١٣) انظر: أبو جودة، سهام، «الأخطل الصغير حياته وشعره»، رسالة ماجستير بالجامعة الأمريكية عام ١٩٧٠، ص٤٣.

مظاهر النزعة الإنسانية في شعر الخوري:

تعددت مظاهر النزعة الإنسانية في شـــعر بشارة الخوري، وهذا يدل على اتساع تجربتـــه، وعمقها، ومن أهم تلك المظاهر ما يلي:

أولاً: الحب:

عاش بشارة الخوري في فترة شهد العـــالم فيها انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولـــى على دول المحور، ووقع لبنان بعد توزيع الغنائم بين الحلفاء تحت الانتداب الفرنسي، وشهد بذلك ويلات الاحتلال وتقييده للحريات، وتشريد أبناء الأرض نتيجة الأوضاع المأساوية التي عاشوها، فاتجه بشارة وقد عاش تلك المآسي هذا الاتجـــاه الإنساني العام فآمن أن الحب هو الرابطة التـــي تصل بين الموجودات من أحياء وغير أحياء[١٤]، فخلص بشاعريته للحب والجمال والخير «فهـــو وصّاف الجمال في المعاني والصور، وهو يتغنى بالحب أروع التغني»[١٥].

ولا ريب في ذلك إذ يقول في قصيدته (فتن الجمال)[١٦]:

وُلِدَ الهَوَى وَالْخَمْرُ لَيْلَةَ مَوْلِدِي

وَسَيُحْمَلانِ مَعِي عَلَى أَلْوَاحِي

وقد أخذ موضوع الحب عند بشارة صوراً عدة، فهو يعاني الهجر وما يجده في سبيل ذلـــك تارة، ويصف اللقاء وما يدور فيه من الصـــبابة والهوى تارة أخرى، وهو فـــي تلـــك الصـــور جميعها يعلن حبه وغرامه، وتعلقه بـــالمحبوب، نجد الهجر في مثل قوله في قصـــيدته (أتـــرى يذكرونه؟)[١٧]:

عَلّلوهُ فَكَانَ أَقْتَلَ شَيْءٍ

ذَلكَ الْصّدُ بَعْدَمَا عَلّلُوهُ

عَمْرَكَ اللهُ هَلْ عَرَفْتَ فُؤاداً

كَفُؤادِي عَلَيْهِ جَارَ ذَوُوهُ

لَيْتَهُمْ يَذْكُرُونَ لَيْلَةَ كُنَّا

وَالْهَوَى نَحْنُ أُمُّهُ وَأَبُوهُ

فقد كان الهجر والإعراض قاسياً عليه، بعد أن كان يجد من ذلك الحبيـــب الـــود والتعليـــل، وعندما أعرض عنه رأى أنه لا أحد يشاركه فيما هو فيه من الصد، فالاستفهام في البيت الثـــاني يوحي بالمرارة والألم لفراق الحبيـــب. وربمـــا قصد هنا أنه كان يهرب من واقعه المر إلى تعلله مع الحبيب ليجد فسحةً تنسيه ذلك الواقع.

ومثل ذلك قولـــه فـــي قصـــيدته (الإنـــاء المكسور)[١٨]:

أجَلْ كَذِا كُفءُ من أُحِبُّ، وقد

رَمَتْ فُؤادِي، أبقَتْ به أثرا

(١٤) عباس، د. إحسان، «دور الأخطل الصـــغير فـــي الشعر العربي المعاصر»، شهادات ضمها إصدار «الأخطل الصغير في عيون معاصريه»، مكتبـــة البابطين، ص١٣٤.

(١٥) تيمور، محمود، «شاعر الهوى والشباب»، شهادات ضمها إصدار «الأخطـــل الصـــغير فـــي عيـــون معاصريه»، ص٢٤.

(١٦) ديوان بشارة الخوري، دار الكتاب العربـــي ـــــ بيروت ١٤٢٧هـــ- ٢٠٠٦م، ص٢٧٠.

(١٧) السابق، ص١٩.

(١٨) ديوان بشارة ، ص٥٣- ٥٤.

جُرْحٌ كَجُرحِ الإناء ذو خَطَرٍ
قَضَى بِهِ القَلْبُ ما جَنَى الثَّمَرا
لكنّ قلبي ـــ وَجُرْحُه أبداً
دامٍ ـــ إذَا ما بَكَى له اسْتَتَرا
يَنْمُو بِه الجُرْحُ والفؤادُ على
ما كانَ من قَبْلُ يُخِدعُ النَّظرا
تَوَهَّم النَّاسُ في سَلامتِهِ
لا تَلْمُسُوه فإنّه انْكَسَرا

نغمة حزينة نتيجة إعراض المحبوب، وقد ترك ذلك في نفسه جرحاً لا يبرؤ، كالإناء الذي يبقى مشوهاً وقد كُسِرَ وكُشِفَ ما بداخله، وهنا صورة ممتدة للقادم، فعودة الحبيب- إن عاد - لن تكون كما كانت نتيجة هذا الجرح الدامي، وذلك الشرخ سيظل مشوّهاً لعلاقته به حتى لو حاول إعادة تلك العلاقة كما كانت.

وقوله أيضاً في قصيدته (ما أظلمك)[١٩]:

انْحَلْتني بالهَجْرِ ما أظْلَمَكْ!
فارْحَم عَسَى الرحْمنُ أن يَرْحَمَكْ
مَوْلايَ حكّمتُك في مُهْجَتي
فارْفِقْ بها يفْدِيك مَنْ حكّمَكْ
كنتُ غَريقاً في بِحارِ الهَوى
فصَادَني جفناكَ صَيْد السَّمَكْ

إلى أن يقول:

تَمُرُّ بي كَأنّني لم أكُنْ
ثَغْرك أو صَدْرَكَ أو معْصَمَكْ
لو مَرّ سَيْفٌ بيننا لم نَكُنْ
نَعْلَمُ هَلْ أجْرَى دمِي أو دَمَكْ

يذكر الشاعر ما كان بينه وبين المحبوب من وصل، حتى أنه كان المتحكم في فؤاده، ثم هجره وكأنه لا يعرفه، وقد تناسى ما كان بينهما من ود وحب ووصال ، بل إنه لشدة تعلقه بمحبوبه وكأنه ذاته فإن الآلام التي يعيشها المحبوب هي آلامه ، وجرحه جرح للشاعر ، وهنا يتجلى التماهي بين المحبين ، ما يعكس قوة العلاقة التي تربطهما.

ورغم هذه القسوة والمعاناة، فإن الشاعر لا يأبه بذلك، فقد تملك الحب نفسه، ولم يعد يبالي بما يجده في سبيله، يقول في قصيدته (الهوى والشباب)[٢٠]:

يَا حَبيبي لأَجْلِ عَيْنَيكَ مَا أَلْـ
ـقَى وَمَا أَوَّلَ الوُشاةُ عَلَيَّا
أَأَنا العاشِقُ الوَحيدُ لِتُلقَى
تبِعاتُ الهَوى عَلَى كَتِفَيَّا

ومع الهجر تبرز معاناة المحب، يمثل ذلك قوله في قصيدته (عروة وعفراء)[٢١]:

فَإذَا سَمِعْتَ بِعَاشِقَيْنِ فَقُلْ هُما
مَلَكَانِ مُتَّصِلَانِ مُنْفَصِلَانِ
مَا دَارَ ثمَّ سِوَى الحَديثِ كأَنَّهُ
راحٌ يُديرُ كُؤسَهَا المَلَكَانِ
سَلْ عُرْوَةَ بن حِزَامٍ عَنْ غُصَصِ الْهَوَى
تَسْمَعْ جَوَابَ فَتَى الْغَرَامِ الْعَانِي

(١٩) السابق، ص٥٥.

(٢٠) ديوان بشارة، ص١٠٤.

(٢١) السابق، ص٩٢، وقد نشرت القصيدة في صحيفة البرق التي كان يصدرها تحت عنوان: (عروة بن حزام).

يبين الشاعر عمق علاقة المحبين ـــ كما يراها ـــ فهما متصلان حتى ولو تباعدا، ويشبه ما يدور بينهما من أحاديث براح الخمر التي تذهب بعقل صاحبها، في إشارة إلى أن تلك الأحاديث تذهب معها الآلام والمتاعب ، وهو يتكئ هنا على التراث ، وكأنه يريد أن يبين أن تلك العلاقة الحميمية الصادقة بين المحبين لا تتغير بتغير الزمان والمكان ، فكما كانت بين (عروة بن حزام) [٢٢] ومحبوبته (عفراء) ، فإن صورة الحرمان تلك تمتد إلى العصر الحديث.

وتمتد المعاناة لتسهر المحب فلا يذوق طعماً للنوم وقد جافى الكرى عينيه، يقول في قصيدته (سَلي الليل)[٢٣]:

سَلي اللّيْلَ عَنْ عَيْني إذا رَابَكِ الفَجْرُ

أفازَ بها إلّاكِ والأَنْجُمُ الزُّهْرُ

قَسَمْتُ فُؤادِي بَيْنَ بُؤسِيَ والهَوى

فَهَذا لَهُ شَطْرٌ وَهَذا لَهُ شَطْرُ

إلى أن يقول:

سُقيتُ مَرَاراتِ الحَيَاةِ فَلَمْ أَجِدْ

كَمِثْلِ الَّذي يَسْقِيه مِن كَفِّكِ الهَجْرُ

فلا أقسى من هجر الحبيب رغم ما يجده المحب من مرارات في حياته لكنها لا تصل إلى معاناته لما يجده من الهجر.

وجاءت معاناة الهجر وصد المحبوب لتضيف عناءً آخر لنفس الشاعر الذي يعاني الفقر والحرمان:

وَأَشْقى شَقِيٍّ في الوَرى قَلْبُ شاعِرِ

نَبا الحَظُّ عَنْهُ وَالتَقَى الحُبُّ وَالفَقْرُ

فَفِي كُلِّ أُفْقٍ مِنْ أَمانِيهِ مَأْتَمٌ

وفي كُلِّ عُضْوٍ مِنْ جوارِحِهِ قَبْرُ

وأي شقاء أكثر من معاناة قست حتى قتلت المشاعر وكأن صاحبها قد فارق الحياة؟!

ومع ذلك فإن هذه المعاناة وهذا الصد لا يدومان، فالمحبوب رغم صده وإعراضه يعرف تعلّق المحب به، وحرصه على أن يبادله الهوى، نجد ذلك في مثل قوله في قصيدته (فراشة في ورده)[٢٤]:

رَضِيَتْ وَقَدْ ذَهَبَ الجَفا،

وَكَذا الهَوى لينٌ وَشِدَّهْ

وَتَبَسَّمَتْ، فَعَلِمْتُ أَنْ

رَجَعَتْ لَنا تِلْكَ المَوَدَّهْ

ومع اللقاء وتأمل المحبوب تأتي أوصافه الحسان الملهمة لهذا الحب وسريان المشاعر، يقول في قصيدته (جفنه علّم الغزل)[٢٥]:

جَفْنُهُ عَلَّمَ الغَزَلْ

وَمِنَ العِلْمِ ما قَتَلْ

---

(٢٢) عروة بن حزام ، أحد بني حزام من بني ضبة ، أحب (عفراء) ابنة عمه عقال بن مهاصر ، لكنه لم يتزوج منها ، انظر : الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، تحقيق د. قصي الحسين ، فهرسة ومراجعة عادل عبدالجبار ، أثير هادي ، منشورات دار ومكتبة الهلال – بيروت ، (ط١) ١٤٢٢هـ– ٢٠٠٢م ، (م٨) ، (ج٢٤) ص٤٨٠ .

(٢٣) ديوان بشارة ، ص١٥٠.

(٢٤) السابق ، ص٧٨.

(٢٥) ديوان بشارة ، ص٩٨.

إلى أن يقول:

كَيْفَ يَشْكو من الظَّما
مَنْ لَهُ هَذِهِ العُيونْ
يا حَبِيبي، أَكُلَّمَا
ضَمَّنَا لِلْهَوى مَكانْ
أَشْعَلوا النَّار حَوْلَنا
فَغَدَوْنا لها دُخانْ
قُلْ لِـــمَنْ لامَ في الهَوى،
هَكَذا الحُسْنُ قَدْ أَمَرْ
إِنْ عَشِقْنا... فَعُذْرُنا
أنَّ في وَجْهِنا نَظَرْ

ورغم اللقاء الذي لم يدم طويلاً كالنار التي علاها الدخان وتحولت إلى رماد، إلا أن رسالة المحب وصلت، وأن الحب مطلب إنساني يظهر في ملامح صاحبه، حتى وإن أراد إخفاءه.

ويذكر الشاعر جمال المحبـــوب ويصـــف جماله الملحوظ، فحور العيون انعكاس لاتســـاع السماء، والطائر المغرد يتغنّى لتسمعه المحبوبة، والورد غار لجمالها وكأن عبيرها من ذلك الورد الذي قتل نفسه حسداً لجمالها، يقول في قصيدته (الصبا والجمال)[٢٦]:

الصِّبا والجَمالُ مُلْكُ يَدَيْكِ
أَيُّ تاجٍ أعَزُّ مِنْ تاجَيْكِ
نَصَبَ الحُسْنُ عَرْشَهُ فَسَأَلْنا
مَنْ تَراهَا لَه؟ فَدَلَّ عَلَيْكِ
فَاسْكُبي رُوحَكِ الحَنُونَ عَلَيْهِ
كانْسِكابِ السَّمَاءِ في عَيْنَيْكِ
كُلَّما نافَسَ الصِّبا بِجَمالٍ
عَبْقَرِيِّ السَّنا نَمَاهُ إليْكِ
ما تَغَنَّى الهَزارُ إلَّا لِيُلْقِي
زَفَرَاتِ الغَرَامِ في أُذُنَيْكِ

إلى أن يقول:

قَتَلَ الوَرْدُ نَفْسَهُ حَسَداً منـــ
كِ وأَلْقَى دِماهُ في وَجْنَتَيْكِ
والفَرَاشَاتُ مَلّتِ الزَّهْرَ لمّا
حَدَّثَتْها الأَنْسَامُ عَنْ شَفَتَيْكِ
رَفَعُوا مِنْكِ لِلجَمالِ مِثالاً
وَانْحَنَوا خُشَّعاً عَلى قَدَمَيْكِ

هذه صورة مركبة جمعت صوراً جزئيـــة متعددة، فالورد يغار، والفراشات شعرت بغيـــرة الورد فملّته، والنسيم يتحدث عن جمال المحبوب ، حتى انحنت تلك المعاني جميعها لجماله.

ومهما تبدلت عوامـــل الـــزمن وظـــروف الأمكنة فإن الحب هو الحب، فكما كـــان عنـــد عمر بن أبي ربيعة في غزله العذريّ [٢٧]، هـــو ذلك الحب أيضاً عند شعراء العصـــر الحـــديث، يصور ذلك بشارة الخوري في قصيدته (عمـــر ونُعْم) والتي يقول فيها[٢٨]:

إيهِ أَبَا الخطَّابِ مَا أَحْلَى الْهَوَى
تَنْظِمُ مِنْ نَوَّارِه وَتَنْثُرُ
فَبَعْضُهُ يَحْلُمُ فِي أَوْرَاقِهِ
وَبَعْضُهُ عَلَى الرُّبَى مُبَعْثَرُ

(٢٦) السابق ، ص٢٠٠- ٢٠١.

(٢٧) هو عمر بن أبي ربيعة ، يكنّى " أبـــا الخطـــاب" ، أحد شعراء الغزل العذري ، انظر : الأغاني (م١) (ج١) ص٥٣ .

(٢٨) ديوان بشارة، ص١٢٤- ١٢٦.

مَلأتَ أُفْقَ الحُبِّ عِطْراً وَسَنَى
وَصُوَراً لِلْوَحْيِ فِيهَا سُوَرُ

إلى أن يقول:

ثَلاثَةٌ ما عِشْتَ عَاشَتْ لِلْعُلَى
الْحُبُّ ثُمَّ الشِّعْرُ ثُمَّ المِنْبَرُ

ولا يقتصر الحب هنا على ذكر المرأة وأوصافها الحسية، بل يتجاوز ذلك إلى حب الأرض، الوطن، المأوى، إذ كان الأخطل الصغير أحد الشعراء الذين أخلصوا لأوطانهم، وتظهر في شعره النزعة القومية، التي نادت بوجوب الوحدة العربية وطرد المحتل من أراضيها، فقد عاش بشارة «مع الأحرار مقاوماً الاستعمار الرابض على صدر أمتنا العربية مشاركاً قدر المستطاع في أحداث أمته وتصوير آلامها وإبراز مشكلاتها وإلهاب مشاعر أبنائها وتقديس غاياتها ومطامحها»[٢٩].

وتغنّى بوطنه (لبنان) ذاكراً مدنه وقراه، وخيراته، ووجوب احتضان أبنائه الذين أحبوه، نجد ذلك في مثل قوله في قصيدته (زحلة)[٣٠]:

يا زَحلَ، كَمْ من شاعِرٍ لَكِ عاشِقٍ
لولا الّذي تُوحِينَ لم يَكُ شاعرا!
أَسْرَفْتِ في فِتَنِ الجَمالِ، كأنَّما
تَخذَ الجَمالُ على ذُراك مَنابِرا
وَالنَّهْرُ، روحُ العاشقينَ وَدَمْعُهُمْ،
مُلْقى عَلى قَدَمَيْكِ يَلْهَثُ خائِرا
سالَتْ جِراحاتُ الهَوى في صَدْرِه
لَيْلاً، فقبّلَهَا النَّسيمُ مُحاذِرا

إلى أن يقول:

يا جَنَّةَ الدُّنْيا وَسَيِّدَةَ الرُّبى
هَذا رَسولُ الشِّعْرِ جاءَكِ زائِرا
إنْ شِئْتِ، شَقَّ مِنَ الرِّياضِ صَحائِفاً
وَأصابَ من أَزْهارِهِن مَحابِرا

فجمال البلدة التي أحبها الشاعر ألهمته هذه المعاني التي كتبها بقطرات ماء الورد، حيث تعددت فتن الجمال في (زحل)، من النهر الذي لا يخلو من أحاديث المحبين على ضفافه، أو قطرات دمعهم عند الفراق، فجاءت معاني الشاعر، لتساير جمال الأرض وكأنه عاشق ارتمى بين يديها، وهنا يظهر معنى آخر، يتمثل في استحضاره المرأة في عشقه للأرض.

ويعبر الشاعر عن حبه لبلده لبنان ويذكره مزهواً بذكرى استقلاله، يقول في قصيدته (ذكرى ٢٢ تشرين الثاني ١٩٥٢)[٣١]:

لَوْ كُنْتِ تَدْرِينَ مَا أَلْقَاهُ مِنْ شَجَنٍ
لَكُنْتِ أَرْفَقَ من آسى وَمَن صَفَحَا
يُخَضِّبُ الشَّوكَ من كَفِّي ومن كَبدي
دَمٌ عليه جَنِيٌّ الوَرْدِ قد نَفَحا
أَلْبَسْتُ تِشرينَ منه يَوْمَ مَوْلِدِهِ
ألا تراهُ بِلَوْنِ الوَرْدِ متَّشِحا

يعبر عن حبه لوطنه، ويحمل حباً أضناه لو تعلم به لبنان لعذرته في بعض انتقاداته التي عبّر عنها بالشوك في إشارة لما يلاقيه في سبيل وطنه من الآلام والمتاعب، لكنه نسي متاعبه وأحزانه أمام التحرر وجلاء المحتل، فأعقب الدم الذي

(٢٩) الأخطل الصغير حياته وشعره، ص١٧٥.
(٣٠) ديوان بشارة، ص١٢٧.
(٣١) ديوان بشارة، ص٢٨٠، ٢٨٢.

كان يسيل من كفيه ماء الورد، في إشارة إلى جمال الوطن، وهنا نلحظ أن الوطن والمحبوبة يلتمسان التماساً فنياً وجمالياً مقصوداً، وهذه خصيصة في شعر بشارة الخوري.

وكما تغنى ببلده نجد هذا الحب يتسع ليشمل الأقطار العربية الأخرى، فهذا هو يتغنى ببلدة بردى الدمشقيَّة السورية، فيقول في قصيدته (ذكرى بردى)[٣٢]:

سَلْ عَنْ قَديمِ هَوَايَ هَذَا الوَادي
هَلْ كان يَخْفُقُ فيه غَيْرُ فُؤَادِي
عَهْدُ الطُّفُولَةِ في الهَوَى كَمْ لَيْلَةٍ
مَرّتْ لَنا ذَهَبيّةِ الأَبْرَادِ

إلى أن يقول:

تِيهاً، دمشقُ، هل المَفاخِرُ والعُلَى
غيرُ الجِهاد وصَلْتِه بِجهادِ

إلى قوله:

قَالُوا: تُحِبُّ الشَّامَ؟ قُلْتُ: جَوَانِحي
مَقْصُوصَةٌ فيها، وَقُلْتُ فُؤَادِي

فهو كالطائر الذي قُصَّ جناحه ولا يستطيع مغادرة مكانه، حباً وتعلقاً بدمشق التي يخفق بها فؤاده، منذ صغره، ويظهر اعتزازه بدمشق العربية المناضلة التي حازت هذا الحب والمفاخر.

ويقول في قصيدته (فتن الجمال)[٣٣]:

بَرَدَى نَظَمْتَ لَنا الزَّمان قَصَائداً
بيضاً وَحُمْراً منْ نَدَى وصِفاح
فِي كلِّ رابيَةٍ وكل حَنِيَّة
عَصْماءُ تَسْطَعُ بالشَذَا ا الفَوَّاحِ
كَمْ وَقْفةٍ لي في ذَرَاكَ وجَولةٍ
شِعْرِيّةٍ وهَوى الشآم سِلِاحِي
فدّيْتُ ليْلَكَ والكَواكِبُ في يدِي
ولَثَمتُ بدرَك والضِّياءُ وِشَاحِي

فوادي بردى ألهمه هذا الشعر الذي ينبض حباً واعتزازاً بوطنه العربي الكبير، فقد وقف في بردى وقفات عديدة، ونظم فيه القصائد الشعرية التي تتغنى بالشام عامة، ويذكر مظاهر الجمال في الوادي وخاصة في الليل مع بزوغ الكواكب التي تضفي عليه جمالاً.

ثانياً: الرثاء:

أحب بشارة الخوري الحياة بكافة تفاصيلها، الإنسان، الأرض، السلام، ورأيناه كيف سطر ذلك الحب في روائع تناولتها الصفحات السابقة، ولحبه للحياة بوصفها قيمة إنسانية عظيمة، فقد برز الوجه الآخر لذلك الحب في فن الرثاء، كضرب من الحب، فإذا كان الشاعر يعبر عن مشاعره تجاه المحبوب في حياته فإنه يعبر عن تلك المشاعر لمن أحب بعد مماته، بل إن الرثاء يخلّد مآثر المحبوب في تعبيرات صادقة، بعيدة عن التزلف والمحاباة، وقد كانت شهرة الشاعر

(٣٢) السابق، ص١٤٣- ١٤٨.

(٣٣) ديوان بشارة، ص٢٧٠- ٢٧١.

الواسعة، وصلته بالكثير من مشاهير الشعراء في عصره الذين ربطته بهم روابط صداقة ومعرفة «فضلاً عن الارتباط الذي أحدثه برقه [الصحيفة] بينه وبين جماهير الشعب العربي التي كانت في مطلع العشرينيات من هذا القرن تخـوض أوج نضالها السياسي والوطني والذي دفعت في سبيله الكثير من الشهداء والأبطال»[٣٤].

من هنا برز شعر المناسبات عند الأخطـل الصغير ومنه فن الرثاء، وقد ورد فـي شـعره على النحو التالي:

١- رثاء رفاق دربه وأصدقائه:

رثى الأخطل الصغير رفاق دربه وأصدقاءه الذين ربطته بهم رابطة الوطن، أو الأخـوة، أو الإعجاب بشعره، نجد ذلك في مثل قولـه فـي قصديته (دمعة على صديق)[٣٥].

يا صاحبَ القَبْر الَّذي تُرْبُه
طيْبٌ لقد عاجَلْتَنا بالرَّواحْ
سِرْتَ فَمنْ بَعْدَكَ نَلْقَى بِه
مَجْموعةً تلك الخِصالُ المِلاحْ

يرثي الشاعر صديقه طانيوس عبود، فقـد رحل وترك حزناً في نفس الشاعر الـذي كـان يرجو بقاءه، ويتذكر خصاله ومكارمه النبيلة وقد عزّ أن يجد من تجتمع فيه تلك الخصال.

ومثل ذلك المعنى قوله في قصـيدته (إلـى روح فوزي معلوف، فقيد الأدب والشباب)[٣٦]:

عُطِّلَ السَّيْفُ بَعْدَ «فوزي» وَجَفَّ الـ
ـعِطْرُ مِنْ بَعْدِ طِرْسِه ودَوَاتِهْ
وَتَعَرّى رَوْضَ البَيَانِ مِن السجـ
ـع، وَجَاشَ الخَريفُ في جَنَبَاتِهْ

يتضح من الأبيات تعلق الشـاعر بـالوطن وملامحه حتى في فن الرثاء، فهو يعبـر عـن حزنه وألمه لفراق المرثي، ويشير إلـى نهايـة علاقته به، كسقوط الزهر في فصل الخريف.

وقوله في قصيدته (رثاء فوزي الغزّي)[٣٧]:

خَرجَوُا بالنَّعْشِ في ذُرْوتِه
عَرَبِيٌّ يَصْدَعُ الشَّمْسَ بِشَمْسِ
يا لَهُ مِنْ عَلَمٍ في عَلَمٍ
يَتَهَادَى بَيْنَ تَقْبيلٍ ولَمْسِ

فالنعش العلم (المعروف) يحمل علماً على أكتاف المشيعين بحفاوة بالغة إلى مثواه الأخير.

وقوله في رثاء ميخائيـل البسـتاني فـي قصيدته (طأطئي للرئيس يا أمة الأرز)[٣٨]:

طُوِيتْ رايةٌ، وفُلَّ حُسامُ
فعلى العِلْم والإباءِ السَّلامُ
طَأْطِئي للرَّئيس يا أُمَّةَ الأر
زِ لهذا الإجلالُ والإعظامُ
للَّذي تَلْثِمُ النَّزاهةُ كفَّيـ
ـهِ، وتُثْني عليهما الأقلامُ[٣٩]

(٣٤) الأخطل الصغير حياته وشعره، ص٢٣٠.
(٣٥) ديوان بشارة، ص٨١.
(٣٦) السابق، ص١١٥.
(٣٧) ديوان بشارة، ص١١٦- ١٢٠.
(٣٨) السابق، ص٢٠٤.
(٣٩) مثل هذا المعنى نجده أيضاً في قصيدته (من للبلاد) في رثاء البطريـرك الرومـاني، وكـذلك قصـيدته (مصرع النسر) في رثاء الملك فيصـل الأول ملـك العراق، انظر ديوان ص١٣٣- ١٥٨.

عبر عن مكانة المرثي بالراية ، وعن وفاته بسقوطها ، فبموت ميخائيل فقدت لبنان واحداً من أبنائها المخلصين المشهود له بالنزاهة، وصواب الرأي، وسلامة القرار.

ويقول في رثاء الكاظمي، في قصيدته (أحين صار ترابا)[٤٠]:

أحِينَ صارَ تُرابا؟!

لَقَدْ أَتَيتُمْ عُجابا

يا أُمَّةً لا أَراها

تَخْطُو إلى الحَقِّ قابا

لبنانُ منها، فَسَلْنِي

وَعَدَّ ضِحْكي جَوابا

الموْتُ اَكْرمُ نَفْساً

وَالقَبْرُ أَرْحَبُ بابا

قَدْ صافَحاهُ عُقاباً

وَعانَقاهُ شِهابا

يخاطب لبنان معاتباً قسوته على بعض أبنائه، الذين فارقوه ولم يكونوا قد وجدوا لذة العيش فيه، فغادروا كالشهب التي ترتمي من أفق السماء.

ومثل ذلك المعنى يقول في رثاء إبراهيم هنانو، في قصيدته (سقط السيف)[٤١]:

سَقطَ السَّيْفُ بَعْدَ طولِ الضِّرابِ

مِنْ يدِ المَجْدِ، أَحْمَرَ الجِلْبابِ

فَهَوَتْ أُمَّةٌ عَلَيْهِ، تُفَدَّيــ

ــهِ بِمَنْخوبِ شِيبِها وَالشّبابِ

تَتَلَوَّى تَحْتَ المُصاب، وَتُصْغِي

لِحَدِيثِ الدُّموعِ في الأَهْدابِ

مَأْتَمٌ في الخُدودِ، لِلأدْمُعِ الحمْـ

ـراءِ ما بَيْنَ مُسْتَهِلٍّ وَخابِ

يشير هنا إلى أن هنانو قضى نحبه بعد طول كفاح، وجد في سبيله المصاعب، وسالت دماه، ومع ذلك ظلّ صامداً في سبيل حريته وكرامته، وكانت وفاته فاجعة كبيرة وجد حرقتها أبناء لبنان الذين ذرفوا الدموع على فراقه.

ومثله أيضاً رثاؤه لميشال زكور في قصيدته (رثاء ميشال زكور)[٤٢]:

نَعَى غُرَرَ الشَّمائلِ مِن نَعاكَا

وجَلَّلَ بالأسى وطناً نَماكا

رَمَى الأُمْنِيَّةَ الزَّهْراءَسَهْمٌ

فَوَسَّدَها الثَّرى، لمَّا رَماكا

أَجُنَّ المَوْت أم هو رامَ كُفْواً

فَهَزّ شَبابَ قَوْمِكَ واصْطفَاكَا

فالموت أيضاً لا يطلب سوى الأكفاء ومنهم ميشال زكور الذي ينعى فيه الشاعر كريم الشمائل، وماتت معه الأمنيات العظام التي كان ينظر لها قرناؤه.

٢- رثاء المناضلين والنخبة من الصحفيين والمفكرين:

رثى بشارة الخوري النخبة من الصحفيين والمفكرين الذين قاسموه هم المجتمع من خلال الصحافة وما كانوا يبثونه فيها من أفكار ودعوة لمواجهة الظلم وقوى الاحتلال وذلك من مثل قوله في رثاء الصحافي اللبناني المهاجر نعوم

(٤٠) ديوان بشارة، ص٢٢٠- ٢٢٤.

(٤١) ديوان بشارة، ص٢٣٦، ٢٤٢.

(٤٢) السابق، ص٢٤٨.

مكرزل، إذ يقول في قصيدته (المهاجر)[٤٣]:

أشجَاكَ أَنَّكَ رَائحٌ لا تَرْجِعُ
وهَوَاكَ وَالأوْطَانُ بَعْدَكَ بَلْقَعُ
مُتَلَفِّتٌ... ما تَبْتَغِي؟ مُتَوَجِّعٌ
مَا تَشْتَكِي؟ مَتَنَصِّتٌ... مَا تَسْمَعُ؟
تِلْكَ الزَّغَالِيلُ التي غَادَرْتَهَا
جَفَّ الثَّدِيُّ وَمَاتَ عَنْهَا المُرْضِعُ

فالفراق الأبدي نكأ فراقاً سابقاً عانى منه الشاعر، وقد انتقل صديقه من موطنهما إلى بلد المهجر، فلم يكن يسمعه لبعد المسافة بين الموطنين، ولم يعد يسمعه مرة أخرى بعد أن فارق الحياة، فبموته جفّت القرائح كما يجف ثدي المرضع.

ومثل ذلك رثاؤه لنقيب الصحافة وديع عقل[٤٤] إذ يقول في قصيدته (العبقرية ما حييت جناية)[٤٥]:

قالُوا الصّحافةُ قُلتُ أين حَبِيبُها
ونقيبُها يَحْتَلُّ صَدْرَ النَّادي
تَتَدَاولُ الآذانُ سِحْرَ حديثِهِ
بَرْداً على كَبِدٍ وَقَدْحِ زِنادِ
أيُقامُ وَزْنٌ للبَيانِ وَقَدْ رَمَى
سَهْمُ المَنِيَّةِ منه قَلْبَ الضَّادِ
فَتقطّعَتْ مُهَجٌ، وفاضت أَعْيُنٌ
رَمَت الخُدودَ بكلِّ أوْطَفَ صادِ
مَطَرٌ كما انتَثَرَ الجُمان على اللّظَى
وَتَكسَّرَ البِلَّورُ في الأجيادِ

فقدت الصحافة نقيبها الذي كان يتصدر مجالس الصحفيين، وتتناقل الآذان والأقلام حديثه المختص وكأنه الماء البارد الشافي، وبرحيله فقده الوسط الصحفي الذي بكاه بكاء شديداً وظهر الحزن على الوجوه لرحيله، لما يعرفه من مواقفه ومنافحته عن وطنه ، وأبناء جلدته.

٣- رثاء نظرائه الشعراء:

رثى بشارة الخوري عدداً من الشعراء الذين قاسموه مسئولية الكلمة، وألم الإبداع، وكان من خلال فن الرثاء يقتنص الفرصة وخاصة في رثاء هؤلاء الأعلام لبث ما يريد من أفكار ومشاعر، والبوح للجماهير بما يعتمل في نفسه من رؤى ومطالبات بالصمود في مواجهة الظلم، والمطالبة بالحرية[٤٦]، وذلك من مثل قوله في رثاء الشاعر إلياس فياض في قصيدته (شاعر يترك الخيال كسيحاً)[٤٧]:

بِالعَصِيَّيْنِ دَمْعِهِ وَبَيَانِهْ
لَا تَلُمْ شَاعِراً عَلَى خِذْلانِهْ
بعْدَ «فَيَّاضَ» جَفَّ في جَفْنِهِ الدَّمْـ
ـعُ ولُفَّ البَيَانُ في أكْفَانِهْ
وَخَبَا كلُّ سَاطِعٍ في سَمَاهُ
وَذَوَى كُلُّ زَاهِرٍ في جِنَانِهْ

(٤٣) ديوان بشارة، ص١٤٠.
(٤٤) الرئيس الثاني للمجمع العلمي اللبناني.
(٤٥) ديوان بشارة، ص١٧٣- ١٧٩.
(٤٦) انظر شرارة، د. عبد اللطيف: «الأخطل الصغير»، سلسلة «شعراؤنا»، دار صادر بيروت، ص٦٩- ٧٠.
(٤٧) ديوان بشارة، ص١٢١.

إلى أن يقول:

أيُّهَا الجَدْوَلُ الوَدِيعُ الَّذِي يَنْثُــ
ــرُ الحَيَاةَ في جَرَيَانِهْ
أيُّهَا المَدْمَعُ الحَنُونُ الَّذي لَوْ
لاهُ ما افتَرّ مَبْسِمٌ عَن جُمَانِهْ
أيُّها المُنْشِدُ الكئيبُ الَّذي تَسْــ
مُرُ زَهْرُ الدُّجَى عَلَى تَحْنانِهْ
أمِنَ العَدْلِ أَنْ تُعَفَّرَ في التُّر
بِ وَتَزْهُوَ وَرْدٌ على أغصَانِهْ؟
أمِنَ العَدْلِ أنْ تَنَامَ عَلَى الصَّخْــ
ــرِ وَيَغْفو قَطْرٌ عَلَى رَيْحَانِه؟
أمِنَ العَدْلِ أن تَنُوحَ عَلَى العُشــ
ــبِ وَيَشْدُو طَيْرٌ عَلَى أوْكَانِهْ؟
هكَذَا الشَّاعِرُ الشَّقِيُّ يُغَنِّي
فَيُغَذّي الأفْرَاحَ مِنْ أَحْزَانِهْ

نفذ الشاعر من خلال رثائه لإلياس فياض إلى هذه المعاني التي أراد أن يبرزها للكشف عن شخصية المرثي، فبعد أن ذكر الحزن على فراقه، بدأ يعدد أموراً يعانيها الشعراء والمجتمع، ويكرر الحاجة إلى العدل المنشود من خلال ذكر مشاهد من الطبيعة، فالجدول الجاري، والمنشد المغرد، والشاعر المحلق، اتفقت وهي تعزف أوجاع المجتمع ليقف مناضلاً ومدافعاً عن الحقوق، حتى يسود العدل، وهنا نلحظ التماهي بين الشاعر ومجتمعه.

ومثل ذلك قوله في رثاء جبران خليل جبران في قصيدته (إلى روح جبران، حكمة الدهر)[٤٨]:

هَبْكَ جبرانَ يُلْبِسُ الأدبَ السِّحْــ
ــرَ فَيأتِي بِالمُعْجِزَاتِ كِبَارا
يُغْسِلُ الأنْفُسَ الجَرِيحَةَ بِالدّمْــ
ــمع فَيَكْسو تِلكَ الجِرَاحَ افْتِرَارا
يَسْكُبُ النَّفْسَ وَالبيانَ عَلَى الطِرْ
سِ فَيَطْوي عَلَى الظَّلَامِ النَّهَارا
يُرْسِلُ الفِكْرَةَ النقيّةَ عَذرَا
ءَ، ويُرْخِي الضُّحَى عَلَيْها إزَارَا

إلى أن يقول:

مُتْ إذَا شئْتَ أن تَكُونَ أَدِيباً
أوْ فَبَدِّل بِغَيْرِ لُبْنَانَ دَارَا

فالشاعر أراد أن ينفذ إلى فكرة ما يعانيه أبناء لبنان من الفقر والعوز، وبدأ بذكر مآثر الفقيد، وقدرته الشعرية، وتمكنه من مفردته الشاعرة، ليخلص إلى أن لبنان ـــ كان في ذلك الوقت ـــ بيئة طاردة لهؤلاء المبدعين الذين خرجوا مرغمين تحت وطأة الحاجة ليهاجروا إلى بلدان أخرى، وهنا يظهر أثر الاغتراب الذي يجده الشاعر، وقد لا نبعد في التأويل إذا قلنا إن الشاعر تمثل شخصيته في شخص المرثي ، لما يشعر به من الاغتراب .

وقوله في رثاء أمير الشعراء أحمد شوقي، في قصيدته (شوقي)[٤٩]:

يَا للرَّزِيَّةِ... غَالَ النَّهْرَ غائلُهُ
وَغَارَ في لَهَواتٍ من هَوَاجِرِهِ

(٤٨) ديوان بشارة، ص١٢٩.
(٤٩) السابق، ص١٥٢، ١٥٧.

فَلا الصَّباحُ ضَحُوكٌ فِي شَوَاطِئِهِ

وَلا المَسَاءُ لَعُوبٌ في جَزَائِرِهِ

إلى أن يقول:

مَا لِلمَلاعِبِ فِي لُبْنانَ مُقْفِرة

وَلِلمَنَاهِلِ عُطْلا مِنْ حَرَائِرِهِ

وَلِلمَآذِنِ في الفَيْحَاءِ كاسِفَة

كخاشِعِ السَّرْوِ فِي دَاجِي مَقَابِرِهِ

فالرزء عظيم بفقد أمير الشعر، اهتزت لـــه الأقطار العربية في مصـــر ولبنـــان والشـــام، وغيرها.

ومثل ذلك رثاؤه شاعر النيل، يقـــول فـــي قصيدته (رثاء حافظ إبراهيم)[٥٠]:

أيُّ نكباء أخْرَسَتْ بُلْبلَ النِّيـــ

ـــلِ، وأذْرَتْ تلكَ الَّيالِي الرِّقاقا

وَرَمَتْ صَدْرَ مِصْرَ، فارْتَعَشَ الشَّرْ

قُ كما رُعْتَ حالماً فاستَفاقَا

إلى أن يقوله:

مَرْحَباً رُوحَ «حافظ» دُونَك الخُلْـــ

ـــدُ عُيوناً وأَكْؤُساً ورِفاقا

إلى أن قوله:

ما نَسِينا لك المواقفَ بيضاً

يَوْمَ عاثُوا في الأمَّتين شِقاقا

ورَمُوا مُهْجَةَ الإخاءِ، فسَمّوْ

ها، وكانت دُمُوعُكَ التِّرْيَاقا

كان رحيل حافظ بمثابة النكبة التي حلـــت بالعالم العربي، بفقده شاعر النيل الذي اهتزت له مصر والبلدان العربية، فهو الشاعر الذي كانت له مواقف بيضاء ضد ما يحاك لبلده ومجتمعـــه وأمته، فكشف مؤتمرات الفرقة والشتات، وتلقى في سبيل ذلك المتاعب والمصـــاعب، وهنـــا لا نلحظ الاغتراب الذي وجدناه في رثاء جبـــران خليل جبران، وهذا يعود لاختلاف بيئة المرثـــي عن بيئة الشاعر (الراثي)، فقد لاحظنا الاغتراب في رثائه لأبناء لبنان لما وجده من ألم خروجهم من بلدهم مرغمين للبحث عن لقمة العيش وحياة الكرامة.

ثالثاً: الفقر:

تظل إرادة الشـــعوب وإيمانهـــا بقضـــاياها العامل الرئيس في دفاعها عـــن حقوقهـــا فـــي أراضيها، وحريتها، والعيش على ترابها في أمن واطمئنان، فمع الاحتلال يكون القمع والتهجير، والذل، والجوع، ومـــا هنالـــك مـــن ضـــروب الممارسات التـــي يفرضـــها الاحـــتلال القـــادم لامتصاص خيرات الشعوب، وهو ما حدث فـــي لبنان الذي كانت تسيطر عليه الدولة العثمانيـــة ودخلت الحرب العالمية مناصرة لألمانيا ضـــمن دول المحور، ثم سيطرت القوات الفرنسية على البلد بعد الحرب، الأمر الـــذي انعكـــس علـــى الحريات، والحياة، ما دعا كثيراً من أبناء لبنـــان إلى الهجرة عن وطنهم نتيجـــة عـــدم اســـتقرار الأوضاع السياسية، وكذلك حالة البؤس والفقـــر التي عاشها المجتمع اللبناني، وقد صور الأخطل الصغير في كثير من قصائده حالة الفقر والعوز والبؤس التي عانى منها أبناء وطنه، وكان يرى أن ذلك جزء من رسالته الأدبية والإنسانية، وقد تساءل في مقال له عن مهمة الأدب إذا لم يكـــن

(٥٠) ديوان بشارة، ص١٩٠– ١٩٤.

مصّوراً لهموم وآلام المجتمع إذ يقول: «يريدون أن نكتب لهم شيئاً في الأدب وهم يعنون بعض المقاطع في الغزل والوصف وهو ضرب من الأدب الأبيض ينبت في تربة السلام والرخاء، فلا نكاد نحاوله حتى نصطدم بقصائد حافلة من الأدب الأحمر ينظمها غاندي وأتباعه في الهند والنحاس وإخوانه في مصر كما نظمها الفرنسيون في ثورتهم يوم علقوا قصيدة حمراء في كل شارع وعلى كل جدار، وكما نظمها السوريون عام ١٩٥٢م، وكما نظمها العراقيون عام ١٩٢٠، وكما نظمها شعب «شاعر» يستمد من دمه حبراً لكتابة القصائد الخالدة قصائد النخوة والإخاء والحرية، فما هي قيمة الأدب الأبيض إذن، ذلك الأدب السلس الهانئ الذي يرسله العشاق أنات متقطعة إثر حبيب هاجر وغزال ناظر إذا قيس بالأدب الأحمر يطلقه الثائرون للعدل والحرية من صدورهم شرراً تبري المناصل وتكتسح المعاقل، ما هي قيمة هذه النغمات توقع على الأوتار بين الكأس والزهر إذا قيست بضربات المطارق تحطم القيود عن الأعناق وهتاف الجماهير يدك حصون الظلم والاستبداد»[٥١].

يتجلى في هذا المقال مفهوم الشعر عند بشارة الخوري، فالشعر عملية إبداعية تتأثر بالمحيط الخارجي، يكتبه الشاعر في لحظات بوح هادئة، وشعور بالأمن والاطمئنان، فتكون تلك القصائد المعبرة عن خلجات النفوس تجاه المحبوب، أو ذلك الوصف المعبر عن الأوصاف الحسية في المحبوب، أو الطبيعة أو خلافهما، وهو ما أشار له بالأدب الأبيض، وهذا مصطلح جديد أراد من خلاله الإشارة إلى الحب والسلام، إلا أن الشعر تختلف أدواته وأغراضه في حال الاضطراب، والعدوان، والسيطرة على الأرض، وتغريب أهلها عنها، عندئذٍ تتحول الوظيفة الأدبية إلى سلاح يسهم من خلاله الشاعر في مناصرة قضيته، والمطالبة بحقه وأبناء مجتمعه في العيش الكريم، وهنا لا تختلف مهمة الشاعر عن مهمة الجندي الذي يحمل السلاح ويواجه الموت في ميادين القتال، وهذا ما أشار له بالأدب الأحمر، في إشارة للحرية الحمراء التي قد لا تتحقق إلا بجريان الدماء، وهو ما كان في الثورة الهندية، والمصرية، والفرنسية، والسورية، والعراقية، وأيضاً في الثورة اللبنانية.

فالشعر عند بشارة في ظروف الاحتلال هو سلاح من أسلحة المقاومة لدك حصون الاستبداد طلباً للحرية، وهنا لابد من التذكير بما سبقت الإشارة إليه وخاصة في فن الرثاء من أن الشاعر كان يخرج من غرضه الأساسي في الحب ومنه فن الرثاء إلى إيصال رسالة تبين ما عاناه من رثاهم في سبيل الحرية والكرامة، وهذا يقودنا إلى حقيقة أخرى تتمثل في أن الحروب لا تلغي الذوات مهما كانت قسوتها، ومهما كان ظلم وبطش المعتدين.

وقد تمثل الشاعر هذا المفهوم للشعر ومهمة الشاعر في الدفاع عن حقوقه وحقوق مجتمعه

(٥١) الأخطل الصغير حياته وشعره، ص١٧٥- ١٧٦، عن صحيفة البرق العدد (٣٣٧٠) الصادر في ٣٠ تموز ١٩٣٠م.

ولذلك وقف منادياً بحق الناس في العيش الكريم، ومنددا بما يجدونه من الظلم، يقول في قصـــيدته (الفقراء)[٥٢]:

أيُّها الأغْنِياءُ إنَّ غِناكُمْ
شيَّدَتْهُ سَوَاعِدُ الفُقَراءِ
القُصورُ التي تُقِيمونَ فيها
مَنْ بَنَاهَا لكُم سِوَى الفُقَراءِ
والثيابُ التي تُباهونَ فيها
من تُرى حَاكَها سِوَى الفُقَراءِ
والطّعامُ الّذي تَلَذُّونَ مَنْ هُمْ
صَانِعُوهُ لَكُمْ سِوَى الفُقَرَاءِ

إلى أن يقول:

لا تَقولُوا: وَسَاوِسٌ مِنْ فَقَيرٍ
دَوَّخَتْهُ طَوَارِقُ الأَرْزَاءِ
إنَّ لِلفُقَراءِ ثَوْرَةً لَوْ عَلِمْتُمْ
تَسْبَحُ النَّاسُ دُونَها في الدِّمَاءِ

استعرض الشاعر الطبقـــات الاجتماعيـــة الفقيرة، من العاملين في المهن البسيطة كالبنـــاء والحياكة وإعداد الطعام، وما هنالك، ليبـــين أن هذه الفئة من المجتمع – وهي الغالبية– تعـــاني الفقر والجوع والحرمان، ويحذر من نفاد صبرها وثورتها لتنال حقوقها مضحية في ســـبيل ذلـــك بالنفس والنفيس.

ويصور ما يعانيه الفقير من مصاعب فـــي سبيل تحصيل لقمة العيش، يقول فـــي قصـــيدته (الريال المزيف)[٥٣]:

وَيْحَ الفَقِير فَمَا تُرَاهُ يُلاقِي
سُدَّت عَلَيْهِ مَنافِذُ الأرْزَاق
عَصَفَتْ بِهِ وَبِسِرْبِه رِيحُ الشَّقَا
فَتَسَاقَطُوا كَتَسَاقُطِ الأوْرَاق
فإذَا بَصُرْتَ بِهِ عَجِبْتَ لِشَمْعَة
كالزَّعْفَرانِ تجُولُ في الأسْوَاق
عَلَقُ المَجَاعَةِ مَصَّ بَعْضَ دِمَائِهِ
وَتَعَسُّفُ الحُكَّامِ مَصَّ البَاقِي

فالفقير لا يجد ما يســـد بـــه رمقـــه، وقـــد أوصدت أمامه الأبواب في سبيل لقمة العـــيش، وامتد ذلك لذويه، ومع ذلك لم يمل ولم يهدأ فهو يجول في الأسواق علّه يجد ما يعود به لأســـرته التي تعاني الفقر، وزاد مجاعتها تعسُّف الحكـــام الذين لم يأبهوا بما يعانيه مجتمعهم مـــن عـــوز وحاجة ، وقد استخدم عبارة (مص بعض دمائه) في إشارة للحالة المتردية التي وصل إليها الفقير وذووه.

ويزداد المجتمع بؤساً وفقراً على فقره فـــي حال الحروب واضطراب الأمـــن، يقـــول فـــي قصيدته (من مآسي الحرب)[٥٤]:

إنّها الحَرْبُ... ولَم تَتْرُكْ عَلَى
سَطْحِهَا إلا جُسُوماً بَالِيَهْ
ونُفُوساً حُوَّماً حَوْلَ البِلَى
تَتَمَشَّى في صُدُورٍ خَاوِيَهْ
تَشْتَكِي الجُوعَ وَتَقْرِي العِلَلا
عَجَباً مِنْها جِيَاعاً قَارِيهْ

فالحرب أرهقت النـــاس، وتـــركتهم فـــي

(٥٢) ديوان بشارة، ص٢٨.
(٥٣) السابق، ص٥٩– ٦٢.
(٥٤) ديوان بشارة، ص٨٣– ٩٠.

العراء، لا يجدون ما يسدون به رمقهم، لكنهم مع ذلك احتفظوا بكرامتهم ولم يرخصوها أمام بطش عدوهم.

ولم يقتصر الجوع على الناس بل تعداهم إلى كل ما يعيش على الأرض من الطيور والدواب وخلافها، يقول في قصيدته (سلمى الكورانية)[٥٥]:

لُبْنَانُ ما لِفِراخِ النَّسْرِ جائِعَةً
وَالأَرْضُ أَرْضُكَ أَعْلاها وَأَدْنَاها
أَلِلْغَرِيبِ اخْتِيالٌ في مَسَارِحِها
وَلِلقَرِيبِ انْزِواءٌ في زَوَايَاها؟

يعاتب الشاعر بلده لبنان عتاب المحب المشفق فالأرض كأنها غريبة على أهلها الذين لم يجدوا فيها ما يسدون به حوائجهم من الطعام وخلافه، بينما الغريب يسرح ويمرح متمتعاً بخيرات البلد دون أهله الأصليين.

ويصور الشاعر حال الأسر اللبنانية التي ضيقت عليها الحكومة، وقد أرسلت جباتها لتحصيل الأموال من القرى اللبنانية، يقول في قصيدته (الجابي)[٥٦]:

أَلِلْحُكَّامِ مَا نَجْنِي؟
مَتى كُنّا لَهُمْ رِزْقَا
كَذَا يَلْقى الّذي يَبْتَا
عُ بِالحُرِيّة الرِقَّا
فَعُدْ باللهِ عن بَابِي
وَخُذْ مَا شِئْتَ يَا جَابِي

بل يذهب إلى أبعد من ذلك، إذ يرى أن مَن يسرق الخبز معذور لفعلته تحت وطأة الحاجة، عمن يسرق المدح ويتباهى بعباراته، يقول في قصيدته (إلى شاعر القطرين)[٥٧]:

من يَسْرِقُ الخُبْزَ إنقاذاً لِصبيَتِهِ
أَحَقُّ بالعُذْرِ ممّن يَسْرِقُ المِدحَا

ويخاطب الشاعر أبناء جلدته ليعودوا إلى وطنهم بعد أن هجروه، واتجهوا إلى بلاد الغربة طلباً للعيش الكريم، ويرى أنه مهما كانت القسوة التي واجهوها إلا أن الوطن يظل منطلق الفرح وجلاء الحزن، يقول في قصيدته (عودوا إلى تلك القرى)[٥٨]:

لُبْنَانُ – لُبْنَانُ الحَبِيبُ خَوَى
لا البَيْتُ لا البُسْتَانُ لا العَطَنُ
خَلَتِ المَرَابِطُ مِنْ سوابِقَها
وَتَثَاءَبَتْ بِحِبَالِهَا الأُتُنُ
عُودُوا إلى تِلكَ القُرَى فَعَلَى
بَسَمَاتِهَا يَتَمَزَّقُ الحَزَنُ
لُبْنَانُ ما فَعَلَ الزَّمَانُ بِنَا
سَلْهُ أَمَا لِحُرُوبِه هَدَفُ
يغدُو عَلَيْكَ بِأَوْجُهٍ كَلَحَتْ
فَمَتى يُنَوَّرُ وَجْهُكَ الحَسَنُ؟

فلبنان الجميل بطبيعته وتضاريسه لا يكتمل جماله إلا بعودة أبنائه إليه.

مما سبق يتضح بروز النزعة الإنسانية في شعر بشارة الخوري، فقد وقف مدافعا عن وطنه

(٥٥) السابق، ص١٦٦– ١٧٢.
(٥٦) ديوان بشارة، ص٢١٧– ٢١٩.
(٥٧) السابق، ص٢٦٣– ٢٦٤.
(٥٨) السابق، ص٢٩٢– ٢٩٣.

وأبنائه ، وكان واحداً من الشعراء الذين نـذروا أنفسهم للنضال والمنافحة بسـلاح الكلمـة دون حقوق الأمة وشعوبها، وحرية تلـك الشـعوب، وحقها في العيش الكريم، والإقامة على تـراب أوطانها، فوجدناه يرسل قصائده بـذلك الـنّفس الشعري المليء إنسانية والمشع حيوية، فبـادل الناس الحب بالحب والوفاء بالوفاء، وكان مـن نتائج ذلك ما حظي به من تكريم بإمارة الشـعر بعد شوقي، وما حازه من شعبية جعلت المنـابر تطلبه في كل محفل يقام، ليستغله فـي إرسـال روائعه للناس حبّا ينم عن نفسٍ مسالمة تبحـث عن ذاتها على ثرى وطنها وبين أهلها، منافحـاً عن حق الناس فـي العـيش الكـريم وواجـب الحكومات في توفير فرص العمل ليجد الفقـراء ما يسدون بـه رمقهـم أمـام وطـأة الحاجـة واضطراب المجتمع اللبناني في ذلـك الوقـت، وتمتد إنسانيته لرثاء رفاقه وأصدقائه وزملائـه من المبدعين والشعراء في قصائد لم تخل مـن التذكير بما قام به أولئك الشعراء من المنافحـة عن أوطانهم ومجتمعـاتهم أمـام قـوى الظلـم والطغيان والاحتلال.

جماليات التشكيل:

أولاً: اللغة الشعرية:

تمثلت النزعة الإنسانية في شـعر بشـارة الخوري في توظيفه للخطاب الشعري بصـورة تغوص في أعماق المجتمع، وتصـوّر يومياتـه ومعاناته في ظل وجود المحتل وقسوته وحرمانه لأبناء البلد من تحصيل قوتهم وعيشـهم بسـلام على ثرى وطنهم، فجاء الخطاب الشعري محملاً بتلك المعاني الإنسانية المحبة للسلام من خـلال إبراز معاني الجمال خاصة في بلـده، فتغنـى بجداول الماء، وأصـوات العصـافير، وجمـال الورد، وعلاقته بالمرأة، وبما أن اللغـة تمثـل «ذلك النظام مـن القواعـد والقـيم المقـدرة، المتعارف عليها، التي يشترك فيها أبناء الجماعة اللغوية، ويوظفونها للتعبير عن أغراضـهم»[٥٩] فقد كان الخطاب الشعري عند بشـارة خطابـاً سهلاً بعيداً عن التعقيد أفاد فيه من ثقافته العربية الواسعة، واطلاعه على الثقافة الفرنسية[٦٠]، وقد اعتمد الأخطل الصغير على اسـتثمار الطاقـة الجمالية للمفردات بشكل كبيـر للتعبيـر عـن مكوناته وأفكاره فكما أن الموسـيقى وسـيلتها النغم، والتصوير وسيلته اللون[٦١]، فـإن الأدب وسيلته اللغة التي هي مجموع الألفاظ المكوّنـة للنص، ولذا كان اللفظ على جانب كبيـر مـن الأهمية[٦٢]، فقد يقوم به القصيد دون الاسـتغناء عن الصور الخيالية، أو الموسيقى، فإن الألفـاظ وصوتها ودلالتها وجوها وتآلفها كافيـة لإبـداع

(٥٩) الزليطني، محمد، «اللغة والخطاب»، أبحاث ملتقى قراءة الـنص الحـادي عشـر بعنـوان «اللغـة والإنسـان» ـــــ نـادي جـدة الأدبـي (ط١) ١٤٣٣هـ- ٢٠١١م، ص٢٣٠.

(٦٠) انظر: الأخطل الصغير حياته وشـعره ص٢٤٧-٢٤٨.

(٦١) سلام، محمد زغلول، «تاريخ النقد العربـي»، دار المعارف بمصر، ص٢٩.

(٦٢) انظر: الأخطل الصغير حياته وشعره، ص٢٤٨.

القصيد البديع[٦٣].

وبالنظر إلى اللغة الشعرية في خطاب بشارة الخوري نجد أنه أفرد عناية كبيرة بالألفاظ، واختار منها الألفاظ المناسبة لسياق القول الشعري وبما يتناسب مع شخصية الشاعر[٦٤] المعتزة بعروبتها وتاريخها، وحبها للسلم، والخير للناس، نجد ذلك في مثل قوله معاتباً[٦٥]:

انْحَلْتني بالهَجْرِ ما أظْلَمَك!

فارْحَم عَسَى الرحْمنُ أن يَرْحَمَكْ

مَوْلايَ حكّمتُك في مُهْجَتي

فارْفِقْ بها يفْدِيك مَنْ حكّمَكْ

كنتُ غَريقاً في بِحارِ الهَوى

فصَادَني جفناكَ صَيْد السَّمَكْ

هذا عتاب رقيق قصد من خلاله إظهار معاناته من صد وإعراض المحبوب، فلجأ إلى هذا التكرار: (حكّمتك – حكّمك)، وهذا الطباق: (أظلمك – يرحمك)، ليعبر عن ما يواجهه من قسوة الحياة، لكنها لا تعدل شيئاً أمام هجر المحبوب[٦٦].

سُقيتُ مَرَاراتِ الحَيَاةِ فَلَمْ أَجِدْ

كَمِثْلِ الَّذي يَسْقِيه مِن كَفِّكِ الهَجْرُ

وإن كان الحب والتعبير عنه يستدعي هذه السلاسة وهذه الرقة اللفظية، فإن الشاعر يتخذ ذلك منهجاً حتى في حديثه إلى وطنه وعتابه له، فالوطن ليس إلا تجليّاً للمرأة (المحبوبة)، كقوله[٦٧]:

لَوْ كُنْتِ تَدْرِينَ مَا أَلْقَاهُ مِنْ شَجَنٍ

لَكُنْتِ أَرْفَقَ من آسى وَمَن صَفَحَا

يُخَضِّبُ الشَّوَكُ من كَفِّي ومن كَبدي

دَمٌ عليه جَنِيُّ الوَرْدِ قد نَفَحا

أَلْبَسْتُ تِشرينَ منه يَوْمَ مَوْلِدِهِ

ألا تراهُ بِلَوْنِ الوَرْدِ متَّشِحا

في الأبيات عتاب حار، بلفظ سلس لا تعقيد فيه ولا التواء، عمد فيه الشاعر إلى اختيار ألفاظ تكرر فيها حرف الكاف: (كنت، الشوك، كفي، كبدي، يكون)، وهو من الحروف المجهورة[٦٨]، كان لتكراره موسيقى قوية تناسب حال العتاب، والرسالة التي أراد أن يعبر من خلالها عن حبه لوطنه حتى ولو جار على أبنائه، كما اختار الألفاظ (شجن، آسى، الشوك، كبدي، دم) وجميعها معبرة عن الألم ومواضعه، ثم جاء بالورد في البيت الأخير، وكأنما هو يستعذب تلك الآلام في سبيل الوطن.

وقوله[٦٩]:

يا صاحبَ القَبْر الَّذي تُرْبُه

طيْبٌ لقد عاجَلْتَنا بالرَّواحْ

سِرْتَ فَمنْ بَعْدَكَ نَلْقَى بِه

مَجْموعةً تلك الخِصالُ المِلاحْ

---

(٦٣) السحرتي، مصطفى، «الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث»، مطبعة المقطم والمقتطف، ١٩٤٨م، ص٥٧.

(٦٤) الأخطل الصغير حياته وشعره، ص٢٥٤.

(٦٥) ديوان بشارة، ص٥٥.

(٦٦) ديوان بشارة، ص١٥٠.

(٦٧) السابق، ص٢٨٠.

(٦٨) انظر: أنيس، د. إبراهيم «الأصوات اللغوية» ـــ مكتبة الأنجلو المصرية (ط٥)، ١٩٧٥م، ص٢٣.

(٦٩) ديوان بشارة، ص٨١.

واءم الشـــاعر بـــين المعنـــى الـــذي أراده والأصوات التي وظّفها ليبين مصـــابه بفـــراق المرثيّ، فتراب القبر طيب ، في إشـــارة إلـــى منزلة مَن وسِّد فيه ، وقد جمع خصالا حميدة قلَّ أن تجتمع في غيره.

بل إنه يلجأ إلى المباشرة، ووضوح الرسالة ليكسب المعنى من خلالها وضوحاً، كقوله[٧٠]:

أيُّها الأغْنِياءُ إنَّ غِناكُمْ

شيَّدَتْهُ سَوَاعِدُ الفُقَراءِ

القُصورُ التي تُقِيمونَ فيها

مَنْ بَنَاهَا لكُم سِوَى الفُقَراءِ

والثيابُ التي تُباهونَ فيها

من تُرى حَاكَها سِوَى الفُقَراءِ

والطّعامُ الّذي تَلَذُّونَ مَنْ هُمْ

صَانِعُوهُ لَكُمْ سِوَى الفُقَرَاءِ

إلا أنه رغـــم المباشـــرة ولغـــة الخطـــاب الواضح حاول الشاعر الارتقـــاء بلغـــة الـــنص الشعري والبعد عن الانزلاق إلى الخطابية مـــن خلال إثارة الأسئلة التي أشاعت جواً من الحيوية داخل النص، وقد استمدت ألفاظه جمالهـــا مـــن سياق التراكيب التي أحسن تأليفها كشواهد على وجوب الالتفات إلى الفقـــراء، والمباشـــرة هنـــا تتساوق مع طبيعة المخاطب قاسي القلب، ليلتفت إلى هذه الطبقة المسحوقة، في إطار من الكلمات الواضحة التي لا تحتمل تأويلاً.

ثانياً: الأسلوب:

الأسلوب تعبير بالكلمات، ورسم بالمفردات التي يوظفها الشاعر في النص لإيصال الرسالة التي يريد، وبما أن الشعر يعتمد على الإيحـــاء فإن «الألفاظ الموحية لها أثرها المؤنس في القلب أو الذهن، وقد عدها الناقد «هو لنجورث» أبلـــغ تأثيراً من الكلمات الواصفة»[٧١] وبما أن إنسانية الإنسان «ليست قيمة مصمتة، وإنما هي واقـــع أصيل، يتأذى بشتى الاعتبارات: هـــي حتميـــة يؤذيها الإهمال والانغلاق والخطأ فـــي زاويـــة الرؤية، والخوف من التطور، وكثير غير ذلك، ولكن أكثر ما يؤذيها أيضاً الإيمـــان بالتفـــاوت الطبقي»[٧٢] .

ولأن بشارة الخوي كان ذلك الشاعر الـــذي انحاز إلى المجتمع مصوّراً ما لاقـــاه مـــن أذى المحتل، وما نتج عن ذلك من ظلم وتهجير وفقر، فقد حفل شعره بالحديث عن الطبقة الـــدنيا مـــن طبقات المجتمع اللبناني ـــــ آنذاك ـــــ وهـــي الطبقة الفقيرة التي عانت شظف العيش وخشونة الحياة، وجاءت قصائده لوحات فنية معبرة عـــن ذلك الحال، فوظف الألفاظ تارة، والصور تـــارة أخرى، ومزج بينهما في بعض القصائد، فعلـــى سبيل المثال نقرأ قصيدته السابقة (الفقراء) فنجد ذلك الأسلوب المباشر الذي عبر من خلاله عـــن حال الفقراء، رغم أنهم مكوِّن مهم من مكونـــات المجتمع، ولو تناساهم الأغنياء إلا أنهم يجدونهم أمامهم في القصور التي شيدوها، وفي الثيـــاب

(٧٠) السابق، ص٢٨.

(٧١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث، ص٥٩.

(٧٢) عبـــاس، إحســـان «اتجاهـــات الشـــعر العربـــي المعاصر»، دار الشروق للنشر والتوزيع – عمان –الأردن، (ط٣) ١٤٢١هـ– ٢٠٠١م، ص١٥٥.

التي يلبسونها، وفي كل تفاصيل الحياة اليومية:

وَالحَليبُ الّذي رَضِعْتُمْ صِغَاراً

كَانَ مِنْ صَدْرِ مُعْظَمِ الفُقَرَاءِ

ويحذر من تجاهل هذه الفئة التي هي غالبية الشعب:

إنَّ لِلفُقَرَاءِ ثَوْرَةً لَوْ عَلِمْتُمْ

تَسْبَحُ النَّاسُ دُوْنَها في الدِّمَاءِ

وتظهر المباشرة مرة أخرى في هذا السياق، وذلك لأن الجمالية ليست أمراً مطلقاً بقدر ما هي مسلك سياقي تقتضيه الغايات الدلالية للقصيدة، وفي سياقنا هذا يريد الشاعر القول: إن أمام الأغنياء مسؤولية إنسانية تجاه الفقراء المكلومين، ولا سبيل للشاعر والأمر كذلك أن يأتي بخطاب احتمالي فجاء بخطاب مباشر خارج الدلالة.

ويوظف الصورة توظيفاً يتسق مع المنحى الدلالي كقوله[٧٣]:

أجَلْ كَذِا كُفءُ من أُحِبُّ، وقد

رَمَتْ فُؤادِي، أبقَتْ به أثرا

جُرْحٌ كَجُرحِ الإناء ذو خَطَر

قَضَى بِهِ القَلْبُ ما جَنَى الثَّمَرا

لكنّ قلبي – وَجُرْحُه أبداً

دامٍ – إذَا ما بَكَى له اسْتَتَرا

يَنْمُو بِه الجُرْحُ والفؤادُ على

ما كانَ من قَبْلُ يُخدِعُ النَّظرا

تَوَهَّم النَّاسُ في سَلامتِهِ

لا تَلْمُسُوه فإنّه انْكَسَرا

شبه الجرح الذي أحدثه المحبوب بكسر الإناء الزجاجي وقد بقي متماسكاً، لكنه مع أي حركةٍ ستتناثر شظاياه، وكذا قلب الشاعر وقد جرح جرحاً دامياً لا يندمل، يظل ينزف كلما تذكر المحبوب وإعراضه، وهذه صورة تقليدية بلا شك، ولا بأس بها في ظل توظيفها في سياقها المراد.

وحينما نتأمل الصورة الشعرية عند بشارة نلحظ طابعاً متميزاً «فهي تعطيك ولا تفتأ، تعطيك ولا تنقطع، وإذا أنت على العهد القريب بها، تحسبها جديدة، جديدة، كأنما لم تقع إليك من قبل»[٧٤].

ويمزج الشاعر بين اختيار اللفظ المعبَّر عن المعنى المراد، وبين الصورة الموحية، كقوله[٧٥]:

انْحَلْتني بالهَجْرِ ما أظْلَمَك!

فارْحَم عَسَى الرحْمنُ أن يَرْحَمَكْ

مَوْلايَ حكّمتُك في مُهْجَتِي

فارْفِقْ بها يفْدِيك مَنْ حكّمَكْ

كنتُ غَريقاً في بِحارِ الهَوى

فصَادَني جفناكَ صَيْد السَّمَكْ

جاء بهذه التعبيرات الموحية، ولجأ لأسلوب التعجب، وكأنه يستعذب هذا الإعراض من المحبوب، ويطالبه أن يرفق به، ويذكّره بلحظة اللقاء في صورة معبرة، وقد وقع في حبه وتعلق به، كما تقع السمكة في شباك الصياد، وهذه

(٧٣) ديوان بشارة، ص٥٣.

(٧٤) العلايلي، عبد الله «في محراب الشاعر»، إصدار «الأخطل الصغير في عيون معاصريه»، مكتبة البابطين، ص٨٤.

(٧٥) ديوان بشارة، ص٥٥.

صورة طريفة، وكأن الشاعر أراد من خلالها أن يكسر هذا الجو المغرق في الألم والأسى الـذي يعيشه لفراق الحبيب، على أننا لا نفصل هنا بين الصورة الشعرية القائمة على جماليات المفردات وبين الصورة النسقية المعتمدة على فنون البلاغة كالتشبيه والاستعارة والكناية، فالحديث هنا عـن الشكل الفني المنبثق عن الأسلوب الذي عمد إليه الشاعر في إبداعه، وهذا الشكل هو مـا تتخـذه «الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر فـي سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانـب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة، مسـتخدماً طاقات اللغة، وإمكاناتها في الدلالـة والتركيـب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضـاد، والمقابلة والتجانس وغيرها من وسائل التعبيـر الفني»[٧٦].

فمادة الشاعر للتعبير هي اللغـة بألفاظهـا وعباراتها، وتظهر عبقرية الشاعر في توظيفهـا من خلال الأسلوب الذي يميز شاعراً عن آخر، وهو ما ذهب إليه بوفون من أن الأسلوب هـو الرجل نفسه[٧٧] «لـذلك يتصـل الحـديث عـن الصورة الشعرية ببناء العبارة»[٧٨]، وبالتالي تآلف العبارات المكونة للنص.

ثالثاً: السرد القصصي:

لجأ بشارة الخوري إلى السرد القصصي في النص الشعري، لتظهر من خلاله نزعة إنسانية، تسامت على الذات، وحرصت علـى تصـوير هموم وآلام المجتمع، فالسردية إحدى «التقنيات المهمة، لأنها تتيح للشاعر أن يخلق شخصـياته ويقدمها وهو منفصل عنها بعيـداً عـن النبـرة الذاتية»[٧٩]، وبما أن أسلوب الأخطـل الصـغير اتسم بالسهولة، فقد وظّف السرد القصصي للبعد عن الخطابية، والحفاظ علـى حيويـة الـنص الشعري من خلال التفاعل الـذي كـان يحدثـه النص بين عناصر تكوينه، ما يجعل المتلقي «في كل لحظة وفي كل كلمة يحس بالشـعر، وفـي الوقت نفسه يحس بالقصة، بالإضافة إلى أن ضم الشعر إلى القصة ليس مجرد زينة، وليس مجرد إثبات للقدرة، على نظم الكلام، إنما تستفيد القصة من الشعر التعبير المـوحي المـؤثر، ويسـتفيد الشعر من القصة التفصيلات المثيرة الحية»[٨٠].

وبقراءة النص الشعري عند بشارة الخوري نجد تفاعلاً يفضي إلى الحيويـة داخـل الـنص ويمنحه سلاسة تصل الفكرة بـالأخرى لترسـم الصورة الكلية التي يريد الوصول إليها، نجد ذلك

---

(٧٦) القط، د. عبد القادر «الاتجاه الوجداني في الشـعر العربي المعاصر»، دار النهضة العربية للطباعـة والنشر، بيـروت، (ط٢) ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص٣٩١.

(٧٧) انظر: إسماعيل، عز الدين «الأدب وفنونـه»، دار النشر المصرية ـــ مطبعـة الاعتمـاد، (ط١) ١٩٥٥م، ص٢٦.

(٧٨) الاتجاه الوجداني في الشعر العربـي المعاصـر، ص٣٩١.

(٧٩) ضرغام، عادل، «الممارسة النقدية» نادي الباحـة الأدبي بالتعاون مع مؤسسة الانتشـار العربـي – بيروت (ط١)، ٢٠١٥م، ص١٧٦.

(٨٠) إسماعيل، عز الدين «الشعر العربـي المعاصـر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية»، دار الثقافة – لبنان، ص٣٠١.

في مثل قوله[٨١]:

فَإذَا سَمِعْتَ بِعَاشِقَيْنِ فَقُلْ هُما
مَلَكَانِ مُتَّصِلَانِ مُنْفَصِلَانِ
مَا دَارَ ثَمَّ سِوَى الحَدِيثِ كأَنَّهُ
رَاحٌ يُدِيرُ كُؤسَهَا المَلَكَانِ
سَلْ عُرْوَةَ بن حِزَامٍ عَنْ غُصَصِ الْهَوَى
تَسْمَعَ جَوَابَ فَتَى الْغَرَامِ الْعَانِي

يسرد الشاعر معاناة العشاق الذين يصلهم الهوى وينفصلون في الواقع إذ ليس للعاشقين سوى الأحاديث التي تذهب سريعاً كالسكرة، وفي سياق سرد الشاعر لهذه المعاناة يستدل بالإحالة على التراث، فيذكر ما كان يعانيه عروة بن حزام إذ تمتد تلك المعاناة لجميع العاشقين.

ومثل ذلك قوله[٨٢]:

سُقيتُ مَرَاراتِ الحَيَاةِ فَلَمْ أَجِدْ
كَمِثْلِ الَّذي يَسْقِيه مِن كَفِّكِ الهَجْرُ

معاناة كبيرة اختصرها في عبارات قليلة لا تتجاوز بيتاً واحداً في القصيدة فقد لجأ لسرد هذه المعاناة من خلال هذا الأسلوب القصصي الشيّق، فكل مرارات الحياة لم تكن بمرارة إعراض المحبوب.

ومثل ذلك قوله[٨٣]:

كَيْفَ يَشْكو من الظَّما
مَنْ لَهُ هَذِهِ العُيونْ
يا حَبِيبي، أَكُلَّمَا
ضَمَّنا لِلْهَوى مَكانْ
أَشْعَلوا النَّار حَوْلَنا
فَغَدَوْنا لها دُخانْ
قُلْ لِـمَنْ لامَ في الهَوى،
هَكَذا الحُسْنُ قَدْ أَمَرْ
إِنْ عَشِقْنا... فَعُذْرُنا
أنَّ في وَجْهِنا نَظَرْ

يعبر الشاعر هنا عن معاناته المتمثلة في قلة لقائه بالمحبوب، فاللقاء – إن حدث – لا يدوم طويلاً، فالعيون تترصده، مثل النار التي سرعان ما تنطفئ وتتحول إلى رماد، ويبرر لنفسه تلك اللقاءات المختلسة التي يحاول أن يرى محبوبه من خلالها وأن الهوى يطلب ذلك مهما حاول إخفاء حرصه على لقاء المحبوب، وهو هنا يعتمد على تراث غزلي معروف يرتكز على الرقباء، والعاذلين كما هو عند عمر بن أبي ربيعة وغيره من الشعراء.

ونلحظ هنا توظيفه للحوار مع المحبوب: (قل)، وهذا من تعدد الأصوات داخل النص الشعري وتوظيفه «يشير إلى مدى أوسع من الرصد عن البعد للوصول إلى التجرد الموضوعي للحوار مع جزئيات الواقع أو تشكيله»[٨٤].

ويظهر ذلك جلياً في مثل قوله[٨٥]:

سَلْ عَنْ قَديم هَوَايَ هَذَا الوَادي
هَلْ كان يَخْفُقُ فيه غَيْرُ فُؤَادِي
عَهْدُ الطُّفُولَةِ في الهَوَى كَمْ لَيْلَةٍ
مَرّتْ لَنا ذَهَبيّةِ الأَبْرَادِ

(٨١) ديوان بشارة، ص٩٢.
(٨٢) السابق، ص١٥٠.
(٨٣) ديوان بشارة، ص٩٨.
(٨٤) الممارسة النقدية، ص١٨٩.
(٨٥) ديوان بشارة، ص١٤٣.

إلى قوله:

قَالُوا: تُحِبُّ الشَّامَ؟ قُلْتُ: جَوَانِحِي

مَقْصُوصَةٌ فيها، وَقُلْتُ فُؤَادِي

يعبر الشاعر عن حبه للشام، فلجأ إلى الحوار بينه وبين محدثه، في سرد يبين من خلاله ذكريات الطفولة التي قضاها في بردى الشامية، حتى غدا كالطائر مقصوص الجناح لا يستطيع مغادرتها، أو كمن فقد بها فؤاده فلا يستطيع أن يبرحها أو ينساها، وهذا تصوير صريح للحنين الذي يقاوم به الإنسان ـــ فضلاً عن الشاعر – حالة الاغتراب التي يستشعرها.

وفي فن الرثاء يوظف بشارة الخوري آلية السرد ليكشف بعضاً من صفات المرثي، ويوظف كذلك الحوار نافذاً منه إلى بيان الانكسار والحزن الذي أحدثه فراق المرثي، كقوله(٨٦):

قالُوا الصّحافةُ قُلتُ أين حَبيبُها

ونقيبُها يَحْتَلُّ صَدْرَ النَّادي

تَتَدَاولُ الآذانُ سِحْرَ حديثِهِ

بَرْداً على كَبِدٍ وَقَدْحِ زِنادِ

أيُقامُ وَزْنٌ للبَيانِ وَقَدْ رَمَى

سَهْمٌ المَنِيَّةِ منه قَلْبَ الضَّادِ

فَتقطّعَتْ مُهَجٌ، وفاضت أَعْيُنٌ

رَمَت الخُدودَ بكلِّ أوْطَفَ صادِ

مَطَرٌ كما انتَثَر الجُمان على اللّظَى

وَتَكسَّر البِلَّورُ في الأجيادِ

ويسرد الشاعر معاناة الفقراء مخاطباً لبنان، الوطن الذي يجب أن يحتضن أبناءه ويطرد الغريب المحتل الرابض على خيرات الأرض، يقول(٨٧):

لُبْنَانُ ما لِفِراخِ النَّسْرِ جائعَة

وَالأرْضُ أرْضُكَ أعْلاها وَأدْنَاها

أَلِلْغَرِيبِ اخْتِيالٌ في مَسَارِحِها

وَلِلقَرِيبِ انْزِواءٌ في زَوَاياها؟

ذلك عتاب حار مكرر، يوجهه الشاعر لموطنه الذي تشرد أبناؤه هرباً من وطأة الجوع، وقسوة الحاجة، في ظل سيطرة المحتل على خيرات البلد، حتى أصبح ابن البلد الأصيل يتوارى في الزوايا هرباً من أن يبطش به.

وبعد فقد كانت للشاعر بشارة الخوري نظرته الخاصة لمفهوم الشعر، إذ يرى أن ما أسماه الأدب الأبيض هو المحبب للنفوس الصافية، التي تعيش في أمن واطمئنان وسلام، فيستهويها غرضا الغزل والوصف، بينما تختلف هذه النظرة في حال اضطراب المجتمع وسيطرة قوى الاحتلال والظلم ليكون الأدب الأحمر سلاحاً من أسلحة الدفاع عن الوطن في سبيل نيل الحرية والكرامة.

ومع هذه النظرة البعيدة لمفهوم ووظيفة الشعر كان للشاعر أسلوبه السلس وعباراته المنتقاة من رحم المعاناة، صوّر من خلالها لبنان من أقصاه إلى أقصاه، كاشفاً عن جمال الورد، وجريان الجداول، ومع ذلك الجمال صور سيطرة المحتل التي أحدثت معاناة الشاعر وأبناء

(٨٦) ديوان بشارة، ص١٧٣.

(٨٧) ديوان بشارة، ص١٦٦.

جلدته، وحال الفقر، والحرمان، والجوع، التي نتجت عن الاحتلال، فكان بشارة لسان الفقراء، لكنه مع ذلك لم يغفل ما انطوت عليه نفسه من حب، تمثل في علاقته بالمرأة، والوطن، والناس من حوله، متناولاً ذلك في نسق الاغتراب الذي يخترق النص بأكمله، وذلك مكمن البعد الإنساني في قراءتنا لهذه النصوص، إذ ظهر الاغتراب في هجر المحبوب، ورثاء الأصدقاء والمناضلين من المفكرين والصحفيين والشعراء، ومعاناة الفقراء الذين لا يجدون قوت يومهم وكأنهم لا يعيشون على تراب وطنهم ، ولهم حق فيه كما هو للأغنياء ، فعاشوا فيه كالغرباء.

وقد كان البناء الشعري عنده يشير إلى الإرهاص بالتطور البنائي المعاصر للقصيدة، فقد كان البيت الشعري بذاته وبمفرده هو الوحدة البنائية الأساسية في القصيدة، وأصبحت القصيدة الحديثة بمجملها الكلي تعتبر بناء واحداً متكاملاً[٨٨].

وقد كان الشاعر مفتوناً بمباهج الحياة المختلفة كوسيلة لدفع الاضطراب الذي كان يعيشه من جهة، وكوسيلة أخرى لتأكيد أن الحياة قيمة تتحقق فيها إنسانية الإنسان، فنفذ من خلال تلك الموضوعات التقليدية كالحب، والرثاء، والفقر، إلى فكرة الإنسانية، وبعث تلك الموضوعات الشعرية بعثاً جديداً يتناسب مع تلك الفكرة.

(٨٨) مروة، حسين، «رحلة في شعر الأخطل الصغير»، إصدار «الأخطل الصغير في عيون معاصريه»، مكتبة البابطين، ص٢٤٧.

المراجع:

١- إبراهيم فتحي، «معجم المصطلحات الأدبية»، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، ١٩٨٦.

٢- أبو الفرج الأصفهاني ، «الأغاني»، تحقيق د. قصي الحسين ، فهرسة ومراجعة عادل عبدالجبار ، أثير هادي ، منشورات دار ومكتبة الهلال – بيروت ، (ط١) ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م .

٣- أبو جودة، سهام، «الأخطل الصغير حياته وشعره»، رسالة ماجستير بالجامعة الأمريكية عام ١٩٧٠.

٤- ابن طباطبا، «عيار الشعر»، تحقيق عبد العزيز بن ناصر المانع، الرياض ١٩٨٥م.

٥- إسماعيل، عز الدين «الأدب وفنونه»، دار النشر المصرية ـــــ مطبعة الاعتماد، (ط١) ١٩٥٥م.

٦- إسماعيل، عز الدين «الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية»، دار الثقافة – لبنان.

٧- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، «البيان والتبيين» تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي – القاهرة، (ج١)، (ط٧) ١٩٩٨م.

٨- **الديراوي، عمر، «الحرب العالمية الأولى»، دار العلم للملايين، بيروت (ط١٨).**

٩- الزليطني، محمد، «اللغة والخطاب»، أبحاث ملتقى قراءة النص الحادي عشر بعنوان «اللغة والإنسان» – نادي جدة الأدبي (ط١) ١٤٣٣هـ- ٢٠١١م.

١٠- السحرتي، مصطفى، «الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث»، مطبعة المقطم والمقتطف، ١٩٤٨م.
١١- العلايلي، عبد الله «في محراب الشاعر»، إصدار «الأخطل الصغير في عيون معاصريه»، مكتبة البابطين.
١٢- القاعود، حلمي محمد، «النقد الأدبي الحديث بداياته وتطوراته»، دار النشر الدولي للنشر والتوزيع (ط١)، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.
١٣- القط، د. عبد القادر «الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر»، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (ط٢) ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
١٤- أنيس، د. إبراهيم «الأصوات اللغوية» - مكتبة الأنجلو المصرية (ط٥)، ١٩٧٥م.
١٥- تودروف، تزفيطان، «الأدب في خطر»، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، (ط١)، ٢٠٠٧م.
١٦- تيمور، محمود، «شاعر الهوى والشباب»، شهادات ضمها إصدار «الأخطل الصغير في عيون معاصريه»، مكتبة البابطين.
١٧- حجازي، محمد عبد الواحد، «العسكرية المصرية من طرد الهكسوس إلى طرد اليهود»، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر - الإسكندرية.
١٨- حوّر، د. محمد إبراهيم، «فلسطين في الشعر المعاصر بمنطقة الخليج العربي»، دار القلم للنشر والتوزيع، الإمارات العربية، دبي (ط٢)، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
١٩- ديوان بشارة الخوري، دار الكتاب العربي - بيروت ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.
٢٠- رمضان لاوند، «الحرب العالمية الثانية»، دار العلم للملايين، (ط١٩)، ٢٠٠٢م.
٢١- سلام، محمد زغلول، «تاريخ النقد العربي»، دار المعارف بمصر.
٢٢- شرارة، د. عبد اللطيف: «الأخطل الصغير»، سلسلة «شعراؤنا»، دار صادر بيروت.
٢٣- ضرغام، عادل، «الممارسة النقدية» نادي الباحة الأدبي بالتعاون مع مؤسسة الانتشار العربي - بيروت (ط١)، ٢٠١٥م.
٢٤- عباس، إحسان «اتجاهات الشعر العربي المعاصر»، دار الشروق للنشر والتوزيع - عمان - الأردن، (ط٣) ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.
٢٥- عباس، د. إحسان، «دور الأخطل الصغير في الشعر العربي المعاصر»، شهادات ضمها إصدار «الأخطل الصغير في عيون معاصريه»، مكتبة البابطين.
٢٦- قميحة، د. مفيد محمد، «الأخطل الصغير حياته وشعره»، منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت، (ط١)، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
٢٧- مروة، حسين، «رحلة في شعر الأخطل الصغير»، إصدار «الأخطل الصغير في عيون معاصريه»، مكتبة البابطين.